ديزي الامير

البيت العربي السعيد

كان صوت هدير الضيوف يهبط من الشرفة ويغطي على صوت محرك سيارتها . اليوم كالايام الفائتة والايام الاتية ، مملوء بالاصوات ، ولا مكان للوقوف في البيت .. لا مكان للتحدث في البيت . غرفة نومها ... سريرها ... استرخاء اجباري وهي . هي المملوء حيوية .. النوم اجباري .

قنينة الحبوب المهدئة للاعصاب فارغة .. فرغت امس ونسيت هي اليوم ان تملأها ، شغلها العمل وشغلتها هموم البيت عن ملء قنينة الحبوب المهدئة للاعصاب ، ولكن النوم اجباري ، فمن أين تأتي به ؟

غرفة المكتبةمضاءة .. ما عليها ، ضيوف زاد عددهم على عدد الكراسي ومساحة غرفة الجلوس فلجأوا الى المكتبة .. ما عليها .. غرفة النوم .. سريرها في انتظارها .

جاءها يقول : ـ وحيدة ، عندك ضيفة في المكتبة ، اذهبي اليها .

ـ ضيفة لي ! من هي ؟

زوجة صديقنا (رفيق) لا تستطيع الجلوس مع الرجال ، انها محجبة .

ـ زوجة صديقنا رفيق ؟! صديقنا التقدمي ؟! زوجته محجبة؟! زوجته محجبة ؟!

ـ لست زوجها لتحاسبني .

واستسلمت وحيدة . زوجة أحد التقدميين محجبة أصرت على زيارتها .. وهي ، هي التي لا تحسن الحديث الى السيدات المحجبات ، لا تعرف لغة حوار مع هاته النساء . هل تحدثهن عن الاولاد ؟ ليس لها ولد .هل تحدثهن عن مشاكل الجيران ؟ ليس بها فضول حتى لمعرفة اسمائهم .

تحدثهن عن الهموم السياسية ؟ تحدثهن عن اخر كتاب قرأته ؟ الزوجة المحجبة ، ماذا نقول لها ؟

سألتها : ـ كيف تعرفت على زوجك ؟ هل هناك انسجام فكري بينكما ؟ كيف التقيتما ؟ ما دورك في حياته كتقدمي ؟؟

لم تفقه الضيفة سؤالا ، وعلى وجهها بدا الانشداه من سيل الاسئلة . لا .. لا .. معذرة يبدو انها فهمت شيئا .

وقفت كالتلميذة المطيعة تردد انها ابنة عمه ، سميت على اسمه منذ كانا طفلين . امه ... راضية عنها فهي لا تخالف امراة العم ، شؤون المطبخ تحت اشراف امراة العم ، نظام البيتراض عنه افراد اسرة العم . هي .. هي لا تعارض . هي .. هي راضية . هي تقبل بالرضوخ لان امراة العم تريد هذا . وما الداعي الىالصراحة اذا كانت الاستكانة ترضي الجميع .. ترضي الام والاخوة والاخوات.. واخرين ، كل الاخرين ؟

وتسألها وحيدة : ـ وأنت .. هل انت راضية ؟

ـ انا اعمل كل ما اريد دون ان اعلن هذا .

ـ وزوجك .. زوجك التقدمي هل هو راض ؟

ـ ما دامت امه راضية فلمَ يعارض ؟

ـ وهل امه راضية ؟

ـ تتظاهر بالرضى امامه وتعمل كل ما تريد دون ان تعلن هذا .

السيدة المحجبة ، زوجة التقدمي ، اذكى مما تصورتها . فلم تتظاهر بالغباء ؟

سكنت وحيدة ثم فكرت ، هل تحاول استفزازها ؟

هل تحاول تحرير رضوخها ؟ هل تبعث فيها الثورة ؟

لم لا تمزقين عباءتك ؟ أتراك ولدت محجبة ؟

ألم تولدي عارية ؟ ايها اقرب الى الطبيعة : العري ام الحجاب ؟

ولكن وحيدة لم تقل هذا الكلام .. لم تقله لان الزوجة المحجبة التي تتظاهر بالرضوخ ستأخذ كلام وحيدة وتنقله على انه دعوة الى العري .. دعوة الى الفجور .. دعوة الى الاستهتار .. وتذكرت .. تذكرت يوم قالت كلاما شبيها بهذا لمحجبة شكت لها كراهيتها للحجاب . نقلته بأن وحيدة داعية للمجون والدعارة وانها معجبة بجسمها تريد عرضه للزهو به .

لمست وحيدة رأسها ، بعثرت شعره ، تتأمل زوجة التقدمي المعجب بها زوجها ما دامت امه راضية عنها .

قطعت السيدة الكبيرة صلاتها وجاءت تساهم في الحديث . رددت زوجة التقدمي كلامها عن اعجاب امراة العم بها فطربت السيدة الكبيرة : ـ رضى الله من رضى الوالدين .

قالت وحيدة : ـ والرضى عن النفس؟

وعادت يداها تعبثان بشعرها فتغلغل الهواء فيه .

ـ هل تصلين ؟ طبعا .

ـ هل تصومين ؟ طبعا .

ـ كسبت الدنيا والاخرة .

ضحكت وحيدة بصوت عال فاستدارت المرأتان اليها ، لم تسألاها لم تضحك ؟ الضحكة المستنكرة ليهمل امرها ، هذا انفعال اني سرعان ما يتلوه صمت راض . سمعت نفسها تقول : ـ لم تكسبا الدنيا ولن تكسبا الاخرة ، الصدق مع النفس هو الدنيا والاخرة ، الانسجام ..

ولكن محاضرتها التي ظنتها ستحرك زوجة التقدمي لم تظهر اية اثار لها على وجه اية من السيدتين . لبستا قناعا جامدا وبدأت السيدة الكبيرة تتمتم بالصلوات فلم تجد زوجة التقدمي نفسها الا وشفاهها تتحرك . فكل زوجات العم زوجة العم .

ذهبت وحيدة الى غرفتها . في الدرج بجوار سريرها دفتر صغير تدون فيه . كانت تكتب في هذه اللحظة (أضيق السجون معاشرة الاضداد) .

يوم جاءت بثيابها الى البيت الجديد وعلقتها في الخزانة

ولم تعرضها على جمهرة السيدات ، رات في عيون الزائرات نظرات تساؤل . رفضت النظر في عيون المتسائلات واهملت فيها الفضول.

السيدة الكبيرة طرحت سؤالا لم تطق الصبر عليه : اين الفستان الاسود ؟

اجابت : ـ لست غرابا

ـ ولكن مناسبات الحداد كثيرة

ـ لا لا اعترف بالسواد تعبيرا عن الحزن

ـ والناس ، ماذا يقولون ؟

ـ هل سألتهم يوما لم لا يتعرون ؟

سالتها احدى الزائرات : ـ لا تبدين كالعرائس ، لا تتزينين ولا تلبسين المصاغ .

ـ لست جارية اتبرج لسيدي ، انافس على قلبه بقية الحريم .

وتذكرت زوجة التقدمي التي تلجس في غرفة المكتبة المضاءة تتمتم شفاهها : اهي صلوات ؟ ما هم ، ما هم السؤال ما دام الذي يبدو على الشفاه شبيها بالصلوات ؟

وجه زوجة التقدمي مصبوغ بقناع ملون واصابع يدها مزنجرة بالخواتم المعباة باقذار العمل البيتي . لا وقت لديها للنظافة .سيدة بيت فاضلة يشغلها العمل عن النظافة .

النظافة ؟ هي ظاهرة تقوم بواجباتها الدينية فاين عدم النظافة في هذا ؟

صوت غرفة الجلوس يعلو ويطغى .. تنساه فترة في ازدحام التفكير ثم يعلو على تفكيرها ويشرّدها فتنظر لتعود افكارها الى مكانها .

صباح اليوم الاخر كانت في مكتبها حين دخل الى غرفتها صاحب دار نشر يعرض عليها قائمة جديدة بمطبوعات داره .

الاعمال الكاملة لطه حسين . اعجبت بالاخراج ، فالغلاف ازرق تخرج منه صورة طه حسين يبتسم .مع انه كان اعمى ، فقد كان له حسٌ صادق بالالوان .

منذ طفولتي وانا معجبة باسلوبه .كتابه حديث الاربعاء كان المفضل عندي فهو اول من تحدث عن الحب العذري وبرر اسبابه بعوامل اقتصادية لقد سبق عصره ...

وسكتت .. وجدت نفسها تعود الى ايام الصبا الاولى يوم كان عالم الكتب عالمها الافضل وتتذكر امها تقرأ دواوين الشعر، تطلب منها الانصات ، تسمعها بيتا او ابياتا اعجبت بها .

شفاه امها تتمتم الشعر ، لم يخيل لها يوما ان تلك التمتمات قد تكون شتائم .

حين عادت الى البيت ، محملة سيارتها باكداس المواد المرشحة للطبخ ، فكرت بضيوفها . الليلة موعد الندوة الشهرية للادباء . الليلة سيتحدثون عن الفيلم الممتد عرضه لاسابيع . هل يستحق هذا الاقبال الجماهيري ؟ اهو فيلم تجاري ؟

هل ترى ان الفيلم قد نجح لان في نفس كل منا عودة الى الطبيعة . الوان الفيلم صارخة كالغابة ، موسيقاه ملحة كالحياة . اشخاص متمددون كالقدر ..

غرفة الجلوس اصواتها تعلو على ضجيج السيارة . المطبخ مكدس بتلول الاكل والصحون والقدور . أين تضع ما جاءت به ؟ أين تعد ما جاءت به ؟ أين تقف هنا ؟

غرفة النوم .. سريرها في انتظارها .

قنينة الحبوب المهدئة للاعصاب مملوءة . تناولت حبة وانتظرت .. انتظرت زوال الاصوات .

علت الاصوات . انهم في طريقهم الى الخروج هرعت الى المطبخ، تطلب من الخادمة ازالة الاكوام .بعد نصف ساعة كان المطبخ نظيفا وكذلك غرفة الجلوس .

فرشت الحوائج . وبعد تنظيف بصلة واحدة رن جرس الباب. علت الاصوات في المدخل وانطلقت الى الداخل وهرعت الخادم تعد اكواب الشاي والقهوة .

السرير ينتظر استرخاءها . بلعت حبة جديدة مهدئة للاعصاب.

بعد ساعة جاء الصمت وعاد العمل الى المطبخ .

بعد دقائق رن الجرس . فوج جديد تعلو ضجته .

بعد ساعتين عاد الهدوء وركضت الخادم تنظف الاماكن وعاد الاستعداد للسهرة .

رنين الهاتف يعلن قرب وصول وفود جديدة ، حاولت الاسراع ولكن احد الضيوف جاء بزوجته ، وعاد الضوء الى غرفة المكتبة .

الضيفة الجديدة سافرة ومتخرجة من الجامعة .

وكان الحوار معها اكثر توترا . جاءت الضيفة ومعها ولدان وثالث في بطنها ، لقد تركت في البيت سبعة .

رات التانيب في عيني وحيدةفاكملت : ـ حرام ان يمنع الابوان انجاب الاولاد هذا اجرام يحرمه الدين . انه يوازي جريمة القتل.

وعادت تسمع نفسها تقول : ـ الحكم على انسان بالحياة اسوا من الحكم عليه بالموت .

الضيفة تنظر بزهو الى بطنها وطفليها

السيدة الكبيرة تتحدث عن وجوب انجاب اكبر عدد من الاولاد ليستند عليهم الاهل في شيخوختهم ، ومرة اخرى سمعت نفسها تقول : « لاجل هذا يجب عدم الانجاب ، كيلا نحمل اولادنا سوء شيخوختنا وهم في عز الشباب » .

الضيفة تنظر بوله الى بطنها وطفليها وهما يعبثان بحوائج الغرفة ويقلبان كل ما فيها ، انما طفلان سعيدان والعبث بالاخرين من مظاهر السعادة .

صوت رجل يدعو الضيفة فقامتهي وبطنها وطفلاها

اسرعت الخادمة تنظف البيت وذهبت وحيدة الى المطبخ تتامل ارطال الفناجين والفضلات والى غرفة الجلوس وقد تبعثرت فيها اعقاب السجاير تحت الكراسي وتحت الطاولات في اماكنها الجديدة .

ومرت ساعة قبل ان يعود النظام الى البيت ويكمل نصف اعداد الطعام .

ولكن وبعد خمس دقائق بالتمام والكمال رن جرس الباب فمشت وحيدة الى الهاتف تخبر اصدقاءها ان اجتماع الليلة اجل لاسباب تشرحها بعد ذاك وهي تدري انها لن تشرح الاسباب ، فهذا وعد لم تف به ابدا .

حين خرج الضيوف ، اخبرت وحيدة من في البيت انها اجلت اجتماع الليلة ، فليتصرف كل بوقته .

السيدة الكبيرة طلبت من ابنها ايصالها الى بيت ابنتها حيث تجتمع كومة من النساء .

فجاة انتاب وحيدة فرح طاغ وانتظرت بصبر نافد فراغ البيت.

قالت للخادمة : اذهبي ونامي خارج البيت ، اذهبي وزوري من شئت، غيبي عن البيت لا اقل من ساعة .

اغلقت الباب بالمزلاج من الداخل واستلقت على اول مقعد صادفته.

رمت فردة الحذاء .. ودفعت بالاخرى بعيدا .

قامت الى النافذة ، اسدلت ستائرها والى الثانية والاخريات اظلمت كذلك . اضاءت النور . نزعت جواربها ومشت حافية . فتحت ازرار ثوبها .. تركته يتساقط عنها . سارت في ارجاء البيت غرفة بعد غرفة . تسمع صوت الصمت . أصغت الى الجدران العارية وركزت عينيها على الكراسي الفارغة .

دخلت الحمام ،فتحت الدوش وحنفية الحوض واستلقت فيه .

رذاذ الماء يتساقط عليها والماء يعلو يغطيها . ومن غناء الماء وصلتها الصلاة .

بيروت